نسيج خنثى

ابراهيم شربتجي

الفصل الأول: الجسيم الذي لم يكن من المفترض أن أراه

أنا شاب مريض... أنا إنسان خسيس. أظن أن كبدي مريض، لكنني لا أعرف شيئًا عن مرضي على وجه اليقين، ولست أدري أين تكمن عِلَّتي بالضبط. لم أراجع طبيبًا قط، ربما تكبرًا، وربما إشفاقًا على الطبيب نفسه الذي سيضطر للإصغاء إلى مونولوغ روحي لا ينتهي. هذا ما كنت لأقوله لو أني، أنا إبرهام، امتلكت شجاعة

دوستويفسكي لبدء اعترافاتي. لكنني لا أملكها. أنا مجرد شاب في السابعة عشرة، أعيش في مدينة تتنفس الغبار، أقرأ "المساكين" و"الجريمة والعقاب" في سريري الضيق، وأحلم بفتاة لا تشبه شيئًا مما قرأته عن النساء. كانت النساء في رواياتي إما ملاكمات معذبات مثل سونيا، أو مخلوقات شيطانية متكبرة مثل ناستاسيا فيليبوفنا. أما زمرد... فكانت معادلة لم تخطر على بال دوستويفسكي أبدًا.

زمرد. ها أنا أنطق الاسم، والآن فقط أدرك كم كان الاسم نفسه نبؤةً. الزمرد جوهرة خضراء، باردة، تُستخرج من أعماق الأرض بالمعاناة،

وتلمع في ضوء الشمس ببريق كاذب يوحي بالدفء. كانت زمرد تلمع هكذا. رأيتها أول مرة في المكتبة العامة، حصننا المحايد. لم نكن من المدرسة نفسها، لا. هي من مدرسة النخبة، تلك القلعة الزجاجية على التلة الشرقية حيث يصنعون العلماء كما يصنع النحات تماثيله. أما أنا فمن مدرسة عادية، مدرسة الأرصفة المتشققة والجدران المتقشرة، حيث الأحلام تموت قبل أن تولد. لكن المكتبة كانت تغسل عنا تلك الفوارق الطبقية، تقشرها عن أرواحنا كما تقشر الأم حبات البطاطا.

كانت تجلس في قاعة العلوم، تحت النافذة الكبيرة التي ينسكب منها ضوء شاحب كأنه مغسول بالحليب. كانت تنحني على كتاب ضخم، وترتدي نظارات مستديرة تجعل عينيها الواسعتين تبدوان ككوكبين محبوسين خلف عدسات تلسكوب. شعرها أسود داكن كالفضاء بين النجوم، مشدود دائمًا في كعكة مهملة تطعنها بقلم رصاص. لم تكن جميلة بالمعنى المبتذل. كان وجهها حادًا، ذكيًا، عيناها تتحركان بسرعة وأنت تتصور أن بإمكانك رؤية المجرات وهي تدور داخلهما. كانت تحرك شفتيها وهي تقرأ، ليس بخشوع القارئ أمام النص، بل بثقة العالمة التي تصحح للنص

أخطاءه. مرة رأيتها تضحك فجأة على صفحة من كتاب ريتشارد فاينمان، ضحكة صغيرة مكتومة، وكأن الفيزياء تروي لها نكتة لا يفهمها غير العباقرة. في تلك اللحظة، شعرت بشيء يتفتت في صدري. ليس حبًا. لا، لم أكن ساذجًا لتلك الدرجة. بل كان شيئًا أشد وطأة: فضولًا مَرَضيًا، شبيهًا بفضول راسكولنيكوف قبل أن يرفع الفأس. فضولًا لمعرفة ما الذي يجري داخل رأس هذه المخلوقة. أي نوع من العقول هذا الذي يضحك على فاينمان بينما أنا أغرق في دموع ماكار ديفوشكين؟

لم أتجرأ على الاقتراب منها لأسابيع. كنت أراقبها من بعيد، وخلال تلك الفترة، تحولت في مخيلتي إلى كائن أسطوري. كنت أسير في الشارع فأرى انحناءة عمود الكهرباء فأتذكر انحناءة ظهرها وهي تكتب المعادلات. كنت أسمع صوت الريح فأظنه تنهداتها وهي تحل مسألة مستعصية. كنت مريضًا، نعم. لكني كنت واعيًا بمرضي. وهذه هي اللعنة الكبرى: أن تكون واعيًا بمرضك، أن تراقب نفسك وهي تتداعى، أن تكون الطبيب والمريض في آن، وألا تفعل شيئًا لإيقاف النزيف. بل على العكس، كنت أستمتع بألمي. كنت أستلذ بمراقبتها كما يستلذ المدمن بإبرته وهو يعرف أنها تقتله.

ثم حدث ما لم أتوقعه.

في أحد أيام تشرين الثاني، كانت السماء تبكي مطرًا باردًا يلسع الوجه كالإبر. كنت خارجًا من المكتبة متأخرًا، وقد حل الظلام باكرًا كعادته في هذا الشهر الكئيب. سمعت وقع أقدام سريعة خلفي، وصوت أنفاس لاهثة. التفت فوجدتها... زمرد. كانت بلا مظلة، يبلل المطر شعرها المهمل حتى انساب على كتفيها، وترتعش تحت معطفها الخفيف الذي لا يليق بليلة كهذه. نظرت إلي بعينيها الواسعتين، وكانت تلك أول مرة أرى فيها عينيها عن قرب. لم تكونا عسليتين ولا

خضـراوين، بـل بلـون الشـاي المعتّـق، بلـون الخريف وهو يحتضر. وقالت بصوت أعمق مما توقعت، صوت امرأة حبيسة في جسد فتاة: "أنت إبرهـام، صـحيح؟". كنـت أعـرف أنهـا تعـرف اسمي من قائمة مستعيري الكتب، لكني شعرت مع ذلك أن اسمي، حين نطقته، أصبح مقدسًا. أومأت برأسي وأنا أحس لساني يلتصق بسقف حلقي كقطعة خشب يابسة. قالت وهي تفرك كتفيهـا: "نسيت مظلتي. هـل تمـانع أن نسير معًا؟".

هل تمانع؟ كأنها سألت هل تمانع أن تتنفس! سِرنا معًا تحت المطر الغزير، تحت البرد القارس،

وأنا أحاول أن أواري ارتعاشة يدي. كان الطريق طويلاً، موحشًا، تصطف على جانبيه أشجار حور عارية تتشابك أغصانها فوق رؤوسنا كعظام أصابع متصلبة. كان صمتنا أشد قسوة من البرد، صمتًا رطبًا مثقلاً بالكلمات التي لم تُقَل بعد. كنت أعرف أن عليَّ أن أقول شيئًا، أي شيء، لكن ذهني الذي كان قبل لحظات يفيض بشذرات دوستويفسكي أصبح فارغًا تمامًا. أنقذتني هي، كعادتها. بدأت تتحدث عن الفيزياء، عن جسيم هيغز بوزون، عن "الجسيم الإلهي" كما يسمونه في الصحف بسذاجة. كانت تقول إن العثور عليه هو كالعثور على قطعة مفقودة من لغز الكون، وإنها تحلم أن تكون جزءًا من ذلك البحث. كان

كلامها موسيقيًا، تتدحرج منه المصطلحات العلمية كحبات مطر على زجاج. وفجأة، دون أي إنذار، توقفت عن الكلام. توقفت عن السير أيضًا. نظرت إلي مباشرة، والمطر يبلل نظارتها حتى كادت عيناها تختفيان.

"لماذا تنظر إليَّ هكذا دائمًا؟"، سألت، بصوت جاف هذه المرة، جاف وحاد.

شعرت أن العالم توقف. أنا أنظر إليها؟ إذن هي لاحظت؟ كان ممكنًا أن أنكر، أن أقول إنها تتوهم. لكني، في لحظة جنونية صافية، وجدت نفسي أهمس بكل ما لدي: "لأني لم أرَ أحدًا

يشبهك في حياتي. لأني لا أستطيع أن أبتعد. لأني... معجب. لا، هذا سخيف. هذه الكلمة لا تعني شيئًا. أنا... أنا مهووس بمعرفة ما الذي يدور في رأسك. أريد أن أعرف كيف يفكر شخص مثلك. أنا لا أعرف كيف أحب، ربما، لكني أعرف أني أريد أن أختفي بداخلك وألا أخرج أبدًا."

ثم صمتُّ، مذعورًا مما تفوهت به. كان اعترافًا مريضًا، مشوهًا، اعتراف رجل واقف على حافة الهاوية يصرخ في الريح.

زمرد لم تجب فورًا. مسحت نظارتها المتضببة بطرف معطفها ببطء متعمد، ثم نظرت إليَّ من جديد، وابتسمت. كانت ابتسامة غريبة، ليست ابتسامة فرح ولا انتصار، بل ابتسامة عالم يراقب خنفساء تحت عدسة مكبرة. وقالت بصوت عاد إلى نغمته العميقة الدافئة: "أنا أيضًا معجبة بك، إبرهام. بطريقة ما. عقلك مختلف. تقرأ دوستويفسكي بينما من في عمري يقرؤون تفاهات. أنت مادة مثيرة للاهتمام."

مادة مثيرة للاهتمام. كان يجب أن أهرب فور سماعي هذه العبارة. كان يجب أن أدرك أني بالنسبة لها عينة في مختبر، وليس رجلًا. لكن

جملتها الأولى "أنا أيضًا معجبة بك" كانت كافية لتخدير كل حواسي النقدية. شعرت بسماء صدري تنشق عن نور.

لكنها أكملت، والمطر يشتد: "لكن يجب أن تعرف شيئًا. أنا... لم أقرر بعد. ميولي، أعني. أنا معجبة بك، نعم، ذهنك يثيرني. لكني... أحب الفتيات أيضًا. أو بالأحرى، أنا منجذبة للجوهر الإنساني، بغض النظر عن الجسد. لا أستطيع أن أحبس نفسي في تعريف واحد. هذا غير علمي."

كان يجب أن أسمع صوت الإنذار. لكني، بحماقتي، ظننت أنها تمنحني مفتاح سرها.

ظننتها تفتح لي بابًا لم تفتحه لأحد. قلت لها بصوت مرتعش: "لا يهم. لا يهم أي شيء. المهم أنتِ."

قالت وهي تقترب مني حتى كدت أحس أنفاسها الدافئة في وجهي البارد: "إذن ابقَ معي. لنجرب. لنختبر هذا الشيء. دون تسميات، دون قيود. مجرد تجربة."

تجربة. الكلمة التي تحدد مصيري التعس. قلت نعم بالطبع. ماذا كان بوسع مسكين مثلي أن يقول؟ لو كنت أملك ذرة من عقل رازوميخين لوليت هاربا. لكني لم أكن رازوميخين. كنت

راسكولنيكوف في لحظة ضعفه، مذهولًا أمام سونيا، مستعدًا للركوع في الوحل وتقبيل قدميها حتى لو قادتني للجحيم.

الفصل الثاني: مختبر العواطف

بدأت "التجربة".

في البداية، شعرت أني قد دخلت الجنة سرًا. كنا نلتقي كل يوم تقريبًا. كانت تأخذني إلى عالمها: مختبرات الفيزياء الفارغة بعد الظهر، حيث كانت تشغل أجهزةً تصدر طنينًا خافتًا وتجلسني على كرسي مخصص للزوار، ثم تنطلق في شرح نظريات معقدة عن المادة المظلمة

والطاقة السوداء، مستخدمةً الطبشور على سبورة كبيرة كستنائية. لم أكن أفهم شيئًا، لكني كنت أستمع بخشوع، ليس للكلمات، بل لطريقة تحرك شفتيها، لطريقة تفلت خصلات شعرها من الكعكة المهملة وهي تلوح بيديها بحماسة. كانت تقول أحيانًا: "افهم يا إبرهام، نحن لا نرى 95% من مادة الكون. كل ما نراه، النجوم، الكواكب، أنا، أنت، مجرد 5% تافهة. ألا يذكرك هذا بشيء؟ ألا يذكرك بنا؟ بعلاقتنا؟ أنت لا ترى 95% مني."

كانت جملة عميقة، شعرت لحظتها بأنها تبوح لي بسر الوجود. لم أدرك أن التفسير الأبسط كان

أمامي: أنا حقًا لم أرَ 95% من حياتها، وأن تلك الـ 95% الخفية كانت مليئة بأشخاص آخرين.

في الأسابيع الأولى، كانت حنونًا. تمسك يدي وهي تشرح. تربت على كتفي حين أبدو حزينًا. كانت تسألني عن أحلامي، عن طفولتي، عن أبي الذي رحل مبكرًا، عن أمي التي تعمل ليل نهار لتطعمني. كنت أتكلم وأنا أبكي أحيانًا، دون أن أدري لماذا، وكنت أشعر أن دموعي تنهمر في بئر دفء لا قرار له. كانت تستمع إلي بعينيها الشاييتين المسمرتين على وجهي، تومئ برأسها، تبتسم ابتسامة الطبيب المشفق. كنت أظنها تحبني. كنت أظن أن ضعفي هذا، هذا

التعري الكامل أمامها، يوثق حبالنا برباط مقدس لا ينقطع.

ولكن سرعان ما بدأت "التقلبات في البيانات"، كما كانت تحب أن تقول.

في بعض الأيام، فجأة وبدون مقدمات، كانت تختفي. تختفي تمامًا. لا ترد على رسائلي، لا تحضر إلى المكتبة، لا تكون في المختبر. في البداية كنت أعتقد أنها منهمكة في بحث جديد، أو مسابقة رياضيات. كنت أكذب على نفسي ببراعة المدمن. ثم حين تعود بعد يومين أو ثلاثة، كانت عودتها مصحوبة ببرود لا يفسره شيء.

كانت تنظر إلي وكأنها تراني لأول مرة، وكأن حكاياتي عن أمي وطفولتي ودموعي لم تكن سوى حديث تافه سمعته في حافلة. تقول لي: "أنا مشغولة هذه الأيام. لا تنتظرني."

وحين أسأل، بصوت متوسل، "هل فعلت شيئًا خطأ؟"، كانت تنفجر ضاحكة. ضحكتها تلك كانت تقتلني. ليس لأنها ضحكة شريرة، لا. بل لأنها ضحكة واثقة، مستعلية، ضحكة من لا يفهم لماذا يسأل هذا السؤال أصلاً. "خطأ؟ إبرهام، ليس كل شيء عنك. أحيانًا أحتاج فقط أن أكون وحدي. أو مع آخرين. أفكاري تحتاج مساحة لتتنفس. أنت خانق."

خانق. كنت خانِقًا إذن. كنت أختنقها بحبي، باهتمامي، بانتظاري. كنت رطوبة سوداء تنمو على جدران روحها النظيفة. هذا ما شعرت به، وهذا ما جعلني أعتذر. أعتذر لها لأني أحببتها! أتوسل إليها أن تسامحني على تعلقي! هل تتصور مشهدًا أكثر إذلالاً؟ كنت أمسك يدها في ممر المدرسة المهجور وأقول بصوت مبحوح: "سأحاول أن أكون أقل... أقل تطلبًا. فقط لا تتركيني." وحين أقول هذا، كان وجهها يلين فجأة، وتتحول إلى زمرد الحنون التي أعرفها. تربت على خدي، تقول: "أنت حساس جدًا.

هـذا جميـل ولكـن متعـب. لا تقلـق، التجربـة مستمرة."

التجربة مستمرة. كم مرة سمعت هذه الكلمات دون أن أفهم معناها الكامل!

ذات ليلة باردة، بينما كنت أسير وحيدًا بعد أن ألغت لقاءنا في آخر لحظة بحجة "ظرف علمي طـارئ"، مـررت بمصـادفة عميـاء أمـام مقـهى موسيقي صغير في الحي القديم. مقهى "الثقب الأسـود"، كـان اسـمه. لـم أكـن أعـرف أن هـذا المقـهى سيصبح في ذاكرتي ثقبًا أسود حقيقيًا يبتلع كل ذرات كياني. كان هناك ضجيج قادم

من الداخل، موسيقى صاخبة، موسيقى روك ثقيلة، ليس النوع الذي أسمعه أنا بالتأكيد. وفجأة، تجمد دمي في عروقي. صوت انثوي، أجش، عميق، يصرخ كلمات أغنية بالإنكليزية عن الثقوب السوداء والجاذبية. كان صوتها. صوت زمرد.

اقتربت من النافذة، وضغطت وجهي على الزجاج البارد المبلل ببخار المقهى من الداخل. كان المشهد كابوسًا سرياليًا. كانت زمرد هناك، على المسرح الصغير، تمسك بقيثارة كهربائية سوداء وتعزف بضراوة، وشعرها ليس في كعكة مهملة بل منسدل حول وجهها كشلال من

الحبر، وعيناها مغمضتان، وجسدها يتلوى مع النغمات. كانت ترتدي قميصًا أسود ممزقًا، وسوارًا جلديًا مليئًا بمسامير، وبدت ككائن آخر تمامًا. ليست عالمة الفيزياء الخجولة التي ترتدي النظارات المستديرة. بل شيطانة روك متمردة. لو كان هذا هو كل شيء لهان الأمر. لكن الأسوأ كان حولها. كانت الفتيات والفتيان يتزاحمون على حافة المسرح مبهورين. وحين انتهت الأغنية، رأيتها تنزل وتحتضن شابًا طويلاً بشعر أزرق، قبلة طويلة على الفم، ثم تلتفت لتحتضن فتاة ذات شعر وردي قصير وتقبلها أيضًا، بنفس الحميمية. لم تكن تعرف أني أراها. كان هذا هو عالمها الآخر. هذه هي الـ 95% التي لا أراها.

شعرت بالغثيان. ليس غثيان الغيرة وحده، بل غثيان الاكتشاف. ها أنا كنت أتوهم أني عشيقها الوحيد، "التجربة" الفريدة المثيرة للاهتمام، بينما كنت في الواقع مجرد متغير صغير في مختبر واسع مليء بالعينات من كل لون وجنس وشكل. كانت تختبر الحب معي أنا، القارئ الحزين، لترى كيف يتفاعل دوستويفسكي على يديها. ثم تذهب لتختبر الشغف الجسدي مع موسيقي روك طويل الشعر، لترى نظرية الاندماج النووي على أرض الواقع. ثم تذهب لتختبر الرقة الأنثوية مع تلك الفتاة صاحبة الشعر الوردي، لتقارن النتائج. كلنا فئران تجارب في مختبر زمرد، وكل قبلة،

وكل دمعة، وكل همسة حب، مجرد بيانات تُدخلها في دفتر ملاحظاتها العبقرية لتحللها لاحقًا.

لم أستطع التحرك من مكاني. ظللت واقفًا في البرد، وجبهتي ملتصقة بالزجاج، أراقب ضحكاتها، عناقها للغرباء، همساتها لهم. في تلك الليلة، عدت إلى غرفتي ولم أنم. جلست على سريري، أقرأ "الإخوة كارامازوف"، وكنت أتخيل نفسي ديمتري، الذي يحب جروشينكا التي تخدعه. لكن زمرد لم تكن جروشينكا. جروشينكا كانت قادرة على الحب في النهاية. أما زمرد فكانت قادرة فقط على التجربة. وعلى

الحب، تلك الكلمة المقدسة، لم تكن بالنسبة لها سوى ضوء نجم بعيد، يمكن تسجيل طيفه وتردده ومسافته، دون الحاجة إلى الإحساس بدفئه.

الفصل الثالث: تحلل الموجة

المواجهات المتكررة أصبحت بمثابة جهاز تعذيب ذاتي.

بعد ليلة "الثقب الأسود"، أصبحت أنظر إليها بشكل مختلف. كنت أتفرس وجهها وهي تبتسم لي، أبحث عن بقايا أحمر شفاه لم تمحُه جيدًا. أتشمم رائحة عطرها، لعلي أكتشف رائحة سجائر المقهى، أو عطر الغريب. كنت أستمع

لشرحها عن مبدأ اللادقة لهايزنبرغ، عن أن مراقبة الجسيم تغير من طبيعته، فأفكر في نفسي: "هذا أنا! أنا الجسيم. بمجرد أن أراقبها، تتغير. لكن حتى حين لا أكون موجودًا، إنها موزعة في كل مكان، في حالة تراكب كمومي، هي عاشقتي، هي عاشقة الآخرين، في آن واحد، ولا تنهار وظيفتها الموجية إلى حالة ثابتة إلا حين يفرض عليها أحدهم الأمر، وهذا لا يحدث!"

وبدلاً من أن أنهي التجربة كما يفعل أي رجل عاقل، أمعنت فيها أكثر. تشبثت بها أكثر. صرت أسألها عن عشاقها الآخرين بأسلوب مازوشي مريض. كنت أجلس معها في المختبر، وقبل أن

تبدأ في الشرح عن النجوم النيوترونية، أسألها: "هل تعزفين الروك الليلة؟ هل سيأتي صاحب الشعر الأزرق؟" فتتوقف عن الكتابة على السبورة، وتستدير ببطء، وتنظر إلي ببرود عينيها الشاييتين، ثم تقول بصوت لا يهتز: "الغيرة ليست علمية، إبرهام. أنت تفسد البيانات." وتكمل الشرح وكأن شيئًا لم يكن.

كان هذا الرد يفتتني من الداخل. ليس لأنها أنكرت، بل لأنها لم تنكر! لقد اعترفت ضمنا، والأدهى أنها ألقت باللوم على غيرتي "غير العلمية". شعرت أني أصبحت عالة على مشروعها البحثي العظيم. كنت الهامش الخطأ

في دفتر مختبرها، الذي كلما حاولت حذفه ألحَّ عليها.

وفي مرة أخرى، تجرأت أكثر. قلت لها بصوت مبحوح، وقد بلغ بي الضعف أن أرتمي عند قدميها جالسًا على أرض المختبر الباردة: "زمرد، ماذا أكون أنا بالنسبة لك؟ قولي لي الحقيقة. هل أنا مجرد رقم في مجموعة بيانات؟" توقفت عن العبث بجهاز الراسم الومضي، وجلست على مقعدها الدوار، وطالعتني طويلاً. ثم تنهدت، ليس بضيق، بل كما تتنهد أمٌّ من سؤال طفلها عن سر الحمل. قالت: "أنت لست مجرد رقم. أنت العينة الشاهد. أنت المتغير الثابت الذي أقيس

عليه بقية التفاعلات." شهقت بصوت مسموع. عينة شاهد! يا للهول. قالتها بكل هدوء، بكل براءة علمية، دون أن تشعر بطعنة الخنجر التي وجهتها. ابتسمت لتلطف الجو، وأضافت بمرح: "لا تبتئس. العينة الشاهد هي أهم شيء في أي تجربة. بدون مرجع ثابت، كل شيء ينهار." وهكذا، أصبحت "مرجعًا ثابتًا". أصبحت سجادة الرواق التي تمسح بها أقدام المارين لتنظف أحذيتهم قبل الدخول إلى الغرف الحميمة.

بدأت صحتي النفسية في الانهيار. أصبحت لا أفرق بين الواقع وخيالاتي. كنت أتصور زمرد في كل مكان: في المرآة بدلاً من وجهي، في الكتب

بدلاً من الحروف. صرت أحسد دوستويفسكي لأن أبطاله عانوا من عذاب واضح، من فقر، من جريمة، من قمار. أما أنا فعذابي كان أشد التباسًا: أن أحب بلا أمل، أن أحب امرأة بلا قلب، بل بمختبر. عذابي كان أن أكون محبوبًا كفأر أبيض، لا كرجل.

الفصل الرابع: المادة المظلمة تبتلع كل شيء

جاءت النهاية في ليلة شتوية تشبه تلك الليلة التي اعترفت فيها بحبي أول مرة. كأن القدر كان يعيد تدوير المشاهد ساخرًا مني. اتصلت بي زمرد في منتصف الليل. كان صوتها مهتاجًا، فيه حيوية لم أعهدها. قالت: "تعال، فورًا. مختبر الفيزياء. لدي اكتشاف!" ظننتها تريدني أن أشاركها لحظة

انتصارها، ربما أثبتت نظرية ما. ربما في لحظة فرحها ستراني رجلاً، لا عينة.

ذهبت مسرعًا، قلبي يدق وكأنه يريد أن يسبقني إلى هناك. كان المختبر مضاءً بضوء خافت. لم تكن وحدها. كان هناك الشاب ذو الشعر الأزرق، والفتاة ذات الشعر الوردي، وشخص ثالث لم أره من قبل، يجلسون على المقاعد العالية ويشربون القهوة من أكواب ورقية. أشارت إليَّ زمرد بحماسة وهي واقفة أمام سبورة ممتلئة بالكامل بمعادلات معقدة، مكتوبة بخط يدها المتشنج. قالت: "وصل خبيرنا العاطفي! الآن اكتمل النصاب."

ضحك الآخرون. ضحكات استعلاء.

زمرد تابعت، تشير إلى رسم بياني مرسوم على ورق شفاف ومثبت على السبورة: "انظروا، أيها الرفاق الأعزاء. كانت نظريتي أن الحب ليس أكثر من تفاعلات كيميائية عصبية يمكن نمذجتها. أردت أن أرى كيف يستجيب كل نمط شخصية. إبرهام، هنا، يمثل النمط الرومانسي المثالي، القارئ الذي يبحث عن معنى ميتافيزيقي للحب. إريك"، وأشارت إلى الشاب الأزرق الشعر، "يمثل النمط الحسي المحض. أما مي"، وأشارت إلى الفتاة ذات الشعر الوردي، "فتمثل

النمط الأنثوي المغاير. وقد جمعت بيانات تفاعلاتكم جميعًا مع تفاعلاتي معكم. والنتيجة النهائية، كما ترون، تشير إلى أنه لا يوجد شيء اسمه الحب. هناك فقط حاجة بيولوجية وبرمجة نفسية يمكن التلاعب بها بسهولة."

الدم توقف في عروقي. سمعت صوت طقطقة، وكأن شيئًا في دماغي ينكسر. نظرت إلى الوجوه من حولي. إريك يبتسم فاترًا. مي تنظر إلي بفضول. أما زمرد فكانت تنظر إلي مباشرة، ولكن ليس إلي شخصي. بل إلى "العينة الشاهد" التي تحققت فرضيتها. قالت بصوت مسرحي: "أود

أن أشكركم جميعًا. وبالأخص إبرهام، الذي كان مرجعي الثابت."

شيء ما بداخلي مات في تلك الثانية. لم أنطق بكلمة. لم أصرخ. لم أبكِ. ببساطة التفتُّ وخرجت. مشيت تحت المطر نفسه، في الشارع نفسه، لكنني هذه المرة لم أكن أبحث عن جسيم إلهي، بل عن العدم. مشيت حتى وصلت إلى الجسر القديم الذي يربط حينا بحي النخبة. نظرت إلى المياه السوداء في الأسفل، المضطربة، الجائعة. لم يكن هناك ما يربطني بالحياة. لا رواية دوستويفسكي، ولا حلم الذهاب إلى الجامعة، ولا صورة أمي المتعبة.

لأني أنا، إبرهام، لم أعد رجلاً. أنا لست بطلاً مأساويًا. أنا لست حتى شخصية ثانوية. أنا مجرد حاشية سفلية لمعادلة في مختبر زمرد.

انحنيت على حاجز الجسر البارد. كان البرد لذيذًا. كان المطر يغسل دموعي التي لم أشعر بها إلا الآن. رفعت عيني إلى السماء السوداء، السماء التي كانت زمرد تعرف أسماء نجومها وكتلها وأعمارها، وهمست بصوت لا يكاد يسمعه غير المطر: "أنا إنسان مريض... أنا إنسان خسيس. لكنني لم أكن يوما مجرد عينة شاهد. أنا حي. أنا أحب. وحتى لو كان الحب مجرد

تفاعل كيميائي، فهو أقدس تفاعل كيميائي في هذا الكون الخالي من المعنى."

لم ألقِ نفسي. ليس لأني وجدت أملًا، لا. بل لأني وجدت يقينًا لا يعرفه دوستويفسكي نفسه: أن المأساة ليست في أن تموت، بل في أن يستمر نبضك بعد أن تتحول روحك إلى بيانات. وقفت هناك حتى طلعت الشمس، ثم عدت إلى غرفتي، وفتحت كتاب "المساكين"، ورحت أكتب في هامشه بقلم رصاص: "أنا ماكار ديفوشكين هذا العصر. لكن فارينكا الخاصة بي كانت عالمة فيزياء، والفيزياء أبرد من أي شتاء."

نهاية